

العالم الجليل ابو المنيب بن درار الغدامسي دوره التعليمي وجهوده في خدمة المذهب الإباضي

أستاذ مشارك - قسم التاريخ - كلية الآداب والتربية
صبراته - ليبيا

د. حنان محمد علي

مستخلص:

تعد مدينة البصرة الحاضنة التي ظهرت منها بوادر مذهب الإباضية ، حيث تميزت بانتشار الحلقات العلمية ، وقد كان منهج الإباضية قائم على الوسطية ومحاربة الظلم ، والاعتدال في تطبيق الشريعة الإسلامية ، وقد ارتبط ظهور هذا المذهب وترسيخ جذوره بحملة العلم إلى بلاد المغرب الذين اختارهم سلمة بن سعيد من الجهات التي انتشر فيها المذهب وبعثهم إلى البصرة لتلقي أصول المذهب، ومن بينهم العالم إسماعيل بن درار الغدامسي الذي تحمل مشاق السفر وعاد إلى بلاد المغرب لتحقيق العدل، والحكم بشرع الله ، وقد تضلع في القضاء وسار سيرة حسنة في هذه الوظيفة التي كلف بها بالرغم من عدم رغبته فيها، وكان قد وضع نصب عينيه القيام بمهمة التعليم وتنشئة أجيال تحمل على عاتقها محاربة الظلم وترسيخ مذهب الإباضية، وقد عرف ابن درار باستخدام نظام الحلقات العلمية مثلما كان سائداً في البصرة مقر الدعوة الإباضية، وتميز كذلك بشغفه العلمي وحبه للفتوى وكان حريصاً على توجيه الأسئلة لشيوخه أبي عبيدة في مسائل الأحكام، وقد كان طلبة العلم على صلة بشيوخهم في البصرة، واعلامه بنشاطهم في بلاد المغرب، وفي هذا البحث سوف يتم الحديث عن هذه الشخصية الإباضية ودورها العلمي والفكري في خدمة المذهب الإباضي، والوظائف التي تولاه ، والآثار التي خلفها .

الكلمات المفتاحية: مذهب الإباضية ، حملة العلم ، المغرب الإسلامي، القضاء ، مدارس الحلقة، جبل نفوسة

The venerable scholar Abu al-Munib ibn Darar al-Ghadamsi, his educational role and efforts in serving the Ibadhi school of thought.

Dr. Hanan Mohammed Ali Suwayd

Abstract:

Signs of the Ibadi doctrine appeared in the city of Basra, where it was characterized by the proliferation of scientific circles, and the Ibadi curriculum was based on moderation and the fight against injustice,

and moderation in the application of Islamic law, and the emergence of this doctrine and the consolidation of its roots was associated with the campaigns of knowledge to the countries of Morocco who were chosen by Salama bin Saeed from the parties that The sect spread in it, and he sent them to Basra to learn the fundamentals of the sect, and among them was the scholar Ismael bin Darar al-Ghadamsi, who endured the hardships of travel and returned to the countries of the Maghreb to achieve justice and rule by God's law , .And he had set his sights on doing the task of education and raising generations that bear upon themselves the fight against injustice and the consolidation of the Ibadhi doctrine, and Ibn Darar was known for using the system of scientific circles as was prevalent in Basra ,the seat of the Ibadhi call, and was also distinguished by his scientific passion and love for the fatwa and was keen to ask questions to his sheikh Abi Obeida in matters of rulings, and the students of knowledge were in contact with their sheikh in Basra, and informed him of their activity in the Maghreb countries, and in this research, this research will talk about this Ibadi personality and its scientific role and the thousand Cree at the service of the Ibadi doctrine, and the functions that he assumed, and the effects he left behind.

Keywords: Ibadi Doctrine / the science campaign/ Islamic Maghreb / Judiciary / Circle Schools / Nafusa Mountain.

مقدمة:

ترجع النشأة التاريخية للمذهب الإباضي إلى الفترة التي أعقبت معركة صفين وظهور مسألة التحكيم، فاستنكر جماعة من أنصار علي بن أبي طالب قبوله مبدأ التحكيم وخرجوا عليه⁽¹⁾، ويرى الإباضية أن نشأتهم مرتبطة بظهور نافع بن الأزرق، إلا أن الأحداث تشير إلى ظهور هذه الفرق بعد مسألة التحكيم حيث انقسم جيش المسلمين، وظهرت أحزاب تتصارع فيما بينها تتمثل في شيعة بني أمية ومركزهم بلاد الشام، وشيعة علي بن أبي طالب وكانوا ببلاد العراق، والحزب الثالث الخوارج الذين ناصبوا الفريقين العداء⁽²⁾.

تتفق أغلب المؤلفات الإباضية على أن نشأة مذهبهم تعود إلى جابر بن زيد وهو من أشهر علماء القرن الأول الهجري، والذي أخذ العلم عن عدد من صحابة الرسول ﷺ، وقد عاصر

الظروف السياسية التي مرت بها الأمة الإسلامية، وعاصر بدايات الحركة الفكرية التي شهدتها أمصار العالم الإسلامي الكبرى مثل المدينة المنورة، والبصرة والكوفة، وخرجت مدرسة جابر بن زيد عدداً من العلماء كان من أشهرهم أبو عبيدة مسلم بن أبي كريمة والذي تولى قيادة المدرسة بعد وفاته في البصرة.⁽³⁾ ومما يلفت الانتباه أن الحركة الإباضية التي قادها أبو عبيدة مسلم كانت حركة دينية فكرية، حيث حرص على تعليم الأعضاء والطلاب أصول العقيدة الإباضية، واهتم بتكوين عدد كبير من الدعاة من مختلف البلدان الإسلامية حتى يتسنى له إقامة إمامة عالمية شاملة، وأوصى أتباعه بألا تكون لهم علاقة بالحكام⁽⁴⁾، وعندما الحديث عن انتشار الإباضية في بلاد المغرب الإسلامي يتبادر إلي أذهاننا الحديث عن حملة العلم ودورهم في نشر هذه العقيدة، وقد سافر هؤلاء في سنة 135هـ / إلى البصرة، وعادوا منها إلى المغرب في سنة 140هـ وهم إسماعيل بن درار الغدامسي، وأبو داوود المقبلي النفاوي، وعاصم السدراتي، وعبدالرحمن بن رستم الفارسي، وعند عودتهم قدم معهم أبو الخطاب عبد الأعلى بن السمح المعافري الذي نصبوه إماماً عليهم، وسمي هذا الوفد فيما بعد بحملة العلم.⁽⁵⁾ وعلى ضوء ما تقدم ذكره تظهر أهمية المذهب الإباضي، ودور حملة العلم في ترسيخ جذوره في بلاد المغرب الإسلامي، ومن هنا كانت أهمية دراسة شخصية إسماعيل بن درار الغدامسي، ومما لاشك فيه أنه كان من الشخصيات الإباضية البارزة في تاريخ بلاد المغرب من خلال جهوده الكبيرة في تنشئة جيل من العلماء الذين حملوا لواء تجسيد تعاليم المذهب، وستحاول الباحثة الإجابة عن بعض التساؤلات، من بينها : ما هي جهود ابن درار في خدمة المذهب الإباضي ؟ وما أهم الوظائف التي تولاهما ابن درار ؟ وماهي أهم آثاره العلمية ؟ وسيتم تقسيم البحث إلى ثلاثة نقاط رئيسة : الأولى تتناول نبذة عن أبي درار الغدامسي، وتعليمه في البصرة، والثانية سيتم فيها الحديث عن الوظائف التي اشتغل بها، أما الثالثة فهي مخصصة للحديث عن أهم آثار ابن درار العلمية ، ومن أهم المصادر التي تم الاعتماد عليها كتاب الشماخي « السير » وكتاب الدرجيني « طبقات المشائخ بالمغرب » وكتاب « الإباضية في موكب التاريخ » للعلامة الشيخ علي يحيى معمور، ومما يلفت النظر هو صمت أغلب مصادر التاريخ الإباضي عن الدور الثقافي والتعليمي لحملة العلم إلا إشارات قليلة، وفي المقابل هناك غزارة في المعلومات عن المجال السياسي، ولكن كما هو معلوم أن الدعوة الإباضية كانت تسير باتجاهين متوازيين السياسي والتعليمي.

أبو درار إسماعيل الغدامسي :

يعتبر أبو درار إسماعيل الغدامسي من أشهر طلاب العلم ، وسمي بالغدامسي نسبة إلى مدينة غدامس التي تقع جنوب غرب ليبيا، ويكنى بـ (أبي درار) و (أبو الزاجر)⁽⁶⁾، وتعرف كنيته عند البعض بـ (أبو المنيب)، وهو من الشيوخ المشهورين بالعلم والتعليم والعمل، وكان من حملة العلم الذين سافروا من المغرب إلى البصرة وتلقوا تعاليم المذهب الإباضي وأصوله على

يد الشيخ أبي عبيدة بن كريمة⁽⁷⁷⁾، وبقو حوالي خمس سنوات في البصرة وكان أبو عبيدة راضياً عن مستواهم الذي بلغوه، وكان لهم دور في الكفاح السياسي الذي بدأه في سنة 140 هـ بقيادة أبي الخطاب، ثم من بعده عبد الرحمن بن رستم⁽⁸⁸⁾ ومن ذلك يتبين دور حملة العلم في نشر المذهب الإباضي إضافة إلى دورهم السياسي، والدفاع عن أحقيتهم في إقامة إمامة إباضية .

ربطت بين أبي درار الغدامسي وأبي عبيدة بن كريمة أواصر صداقة متينة، وقد اتخذ حملة العلم مدينة طرابلس مقراً لهم، وتوزعت جهودهم بين محاربة الظلم والطغيان، وبين الجهاد العلمي، ويعتبر أبو درار مثلاً يحتذى به في الإخلاص والنزاهة، بل يعتبر من أبرز الدعاة، حيث حرص على إقامة العدل بين الناس، وسار على خطى السلف الصالح⁽⁹⁹⁾.

ومن أجمل ما ذكرته المصادر عن هذه الشخصية العلمية والذي يدعو للفخر بعلماء ليبيا الإباضيين ذلك الموقف الذي حدث عندما عزم حملة العلم على مغادرة البصرة إلى بلادهم المغرب، حيث رافقهم الإمام أبو عبيدة لوداعهم، فاستغل أبو درار هذه الفترة القصيرة في الاستفادة من شيخه قبل وداعه وعرض عليه قرابة ثلاثمائة سؤال في مشاكل الأحكام، وأعجب الإمام بتلميذه وسأله مبتسماً : كأنك تريد أن تكون قاضياً يا بن درار ؟ فرد عليه تلميذه قائلاً : « رأيت إن ابتليت بذلك يا شيخ »⁽¹⁰¹⁰⁾، وليس ذلك من غريب المصادفة فقد كان الشيخ أبو عبيدة يرى تلميذه أهلاً لتولي منصب القضاء نظراً لذكائه وعدله.

أهم الوظائف التي تولاهما :

تقلد أبو درار العديد من المناصب إثر عودته لبلده فكانت الوظيفة الأولى التي تحمل لأجلها أبو درار عناء السفر من الجنوب الليبي إلى البصرة وقطع آلاف الكيلومترات هي وظيفة التدريس والوعظ وتلقي تعاليم الإباضية على يد الدعاة في البصرة، ومن ثم العودة إلى بلده والمشاركة في عملية التعليم والعمل لخدمة الإسلام، وقد قدر له الاستفادة من هذه الرحلة وتحصل على علم كثير .

أخذ أبو درار على عاتقه مهمة تربية الأجيال وتنشئتهم، وكانت رسالة التعليم لديه رسالة مقدسة وقد استطاع بما لديه من جهد وعلم أن ينور عقول طلابه بنور الإيمان، فكون مدرسة الفكرة والحلقة على غرار ما هو سائد في البصرة، وأعطى للناس من وقته وعلمه الشيء الكثير⁽¹¹¹¹⁾، وقد تلقى العلم عنه علماء أجلاء، وخرج من مدرسته رجالاً متضلعين في المذهب وشؤونهم، وقد طلب الإمام عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم مائة عالم من علماء جبل نفوسة في التفسير لمناظرة المعتزلة، فما كان من أهل الجبل إلا أن يجتمعوا للنظر في ذلك، وقرروا استعراض أسماء العلماء ليقع اختيارهم على من يقوم بمهمة المائة رجل، ووقع اختيارهم على أبي المنيب محمد بن يانس الدركلي تلميذ ابن درار⁽¹²¹²⁾.

تلقى أبو المنيب بن يانس العلم عن إسماعيل بن درار الغدامسي، وقد أجاز له

شيخه القيام بالتدريس فرجع إلي جبل نفوسة وكون مدرسته العظيمة والتي امتد أثرها إلى القرن الحادي عشر الميلادي، وكان لها فروع كثيرة في مختلف المناطق ترتبط فيما بينها، واستطاع تلميذ ابن درار أن يكون جيلاً من العلماء امتد أثرهم حتى فترة الاحتلال التركي.⁽¹³⁾ ومن الجدير ذكره في هذا الصدد أن إمام الإباضية في البصرة أوصى حملة العلم من بلاد المغرب بضرورة الاتصال به واستفتائه فيما يصعب عليهم من مسائل، وأخبره بنشاطهم⁽¹⁴⁾، وقد هيا حملة العلم سكان المغرب للقيام بالثورة واتفقوا على إعلان الإمامة واجتمع رؤساء المذهب وبايعوا أبا الخطاب، فانضمت إليه قبائل نفوسة وهوارة، وزناتة، وكانت اجتماعاتهم تعقد في منطقة صياد غربي طرابلس، وتمكن الإباضية من الدخول إلى طرابلس والسيطرة عليها واتخذوها قاعدة للمذهب ومن طرابلس بدأوا في التوسع لضم باقي أراضي المغرب.⁽¹⁵⁾ ومما لا شك فيه أن هذه الأحداث السياسية كان لها الدور البارز في تدعيم نفوذ الدعوة الإباضية في بلاد المغرب، وقد كان نشاط الدعوة يعتمد على الحركة السياسية التي تزعمها أبو الخطاب عبد الأعلى وعاصم السدراتي واللذان توليا مهمة الكفاح السياسي، أما الحركة العلمية التي تقوم على نشر تعاليم المذهب، فقد أشارت معظم مصادر الإباضية إلى أن النشاط التعليمي والدعوي، وعبء نشر تعاليم المذهب، وتعميق جذوره قد قام به أبو درار الغدامسي، وعبد الرحمن بن رستم وأبو داود القبلي.⁽¹⁶⁾

ومن ذلك يتضح حجم الدور الكبير الذي لعبه حملة العلم ومن بينهم أبو درار الغدامسي في ترسيخ جذور المذهب الإباضي في بلاد المغرب، حيث كان التخطيط محكماً من خلال السير في خط متوازٍ بين النشاطين السياسي والتعليمي ومما لا شك فيه أن ذلك جاء بنتائجه المنتظرة. ومن الجدير ذكره أن الإباضية استفادوا من الأوضاع المضطربة السائدة ببلاد المغرب في نشر مذهبهم على نطاق واسع، وساعدهم على ذلك رفض عامة المغرب لسلوك الخوارج الصفرية، ولم يرضوا بالتطرف الشديد لهؤلاء خاصة وأن زعيمهم عاصم بن جميل عندما سيطر على القيروان عاث في الأرض فساداً، فبدل الدين وربط الصفرية دوابهم في الجوامع، ومن هنا استغل دعاة الإباضية الفرصة وأصبحوا القوة السياسية الوحيدة التي يمكن لأهل المغرب الأدنى أن يستغيثوا بها، وتولى هذه المهمة حملة العلم الخمسة الذين عادوا من البصرة.⁽¹⁷⁾

ركزت أغلب مصادر الإباضية عند حديثها عن بداية المذهب على الأحداث السياسية، فعندما يترجم الباحث لشخصية العالم أبي درار الغدامسي يجد أغلب المصادر تتفق على أنه عالم عصره، حرص على تعلم مبادئ المذهب، وكان لا يفوت حلقة من حلقات الدروس للاستفادة طيلة السنوات الخمس التي قضاها في مدينة البصرة، إلا أن هذه المصادر لم تشر إلى تاريخ ولادته أو وفاته، كما أنها لم تتناول حياته الاجتماعية.⁽¹⁸⁾

كان العلامة أبو درار يعلم أن عمله الحقيقي والذي تغرّب من أجله وتحمل شظف العيش، هو تعليم الأجيال، واتخذ من إمامه أبي عبيدة بن كريمة قدوة له، وقد تردد على حلقات

دروسه في جبل نفوسة الطلاب من مختلف بلاد الإسلام، وحرص على تأدية رسالته بإخلاص وصدق، ويكفي ليبياً شرفاً به ما خرج من علماء أمثال أبي المنيب محمد بن يانس الذي تطلع في علم المناظرات الكلامية والفقهية.⁽¹⁹⁾¹⁹ ويكفي أبو درار فخراً تلميذه أبو المنيب الذي قضي حياته بين طلب العلم، وأداء فريضة الحج، وزيارة تاهرت عاصمة الإباضية في المغرب الأوسط، فكان عاماً يخصه للحج، وعاماً لزيارة الإمام في تاهرت، وعاماً يقرأ العلم عند شيخه أبي درار، ويتبعهم بعام يتعبد في مشاهد الجبل.⁽²⁰⁾²⁰

هذه كانت الوظيفة الأولى التي مارسها الشيخ أبو درار الغدامسي، فلم يتوان عن خدمة المذهب الإباضي ونشر تعاليمه وتطبيق العدالة ولعل نعت المصادر له حسب ما تقدم بالعالم الجليل يدل على مكانته العلمية الكبيرة في جبل نفوسة خاصة وببلاد المغرب عامة.

أما الوظيفة الثانية التي اشتغل بها أبو درار فهي وظيفة القضاء، والتي كان قد تنبأ له بها شيخه الإمام أبو عبيدة، عندما ودعه في البصرة وكما تمت الإشارة آنفاً أثناء الوداع قام أبو درار بتوجيه بعض الأسئلة لشيخه والمتعلقة بمسائل الأحكام، رغبة منه في التزود والاحاطة بأكبر قدر من العلوم والاحكام، ورغم أن البعض قد شكك في أن تكون هذه الأسئلة في تلك اللحظة، معنيين أن لحظات الوداع تصبحها مشاعر الفراق والحنين، إلا أنهم لم يستبعدوا وجودها، وإنما كان السؤال عن هذه المسائل في وقت سابق للحظة توديعه للشيخ أبي عبيدة بن كريمة.⁽²¹⁾²¹

لم يكن أبو درار يطمح في أن يتولى مهمة القضاء، وحتى عندما سألته شيخه: أتريد أن تكون قاضياً يا بن درار؟ فأجابه: أرايت إن ابتليت بذلك فماذا تأمرني يرحمك الله؟⁽²²⁾²² وعلى الرغم من أن ابن درار كان في نيته الرجوع إلى بلاده ليعيش مثل الناس العوام يدعو للحق وينشر الفضيلة إلا أنه تحمل هذا العبء الكبير وأعد العدة لذلك المنصب، وبالفعل عقد بالإمامة لأبي الخطاب، وأعطيت الولاية لعبد الرحمن بن رستم، وأسند القضاء لابن درار الغدامسي.⁽²³⁾²³

استعد ابن درار لوظيفة القضاء، وأعد العدة للقيام بهذه الوظيفة التي تحتاج للعدل والشجاعة للحكم بما تأمر به الشريعة، حيث مارس مهنته كأبي مؤمن يعرف دين الله ويتفهم أسرار الشريعة الإسلامية، وكان يحكم بالعدل ويخاف الله في ماله ومال عباده، وقد سار على نهج رسول الله عليه أفضل الصلاة والسلام، حيث حظي بسيرة مستقيمة في القضاء بتحريه للحق، فكان لا يخشى أحداً في إقامة حدود الله.⁽²⁴⁾²⁴

يشير المؤرخ محمود إسماعيل عبد الرازق إلي أن الإمام أباعبيدة كان في نيته مسبقاً ترشيح أبي الخطاب عبد الأعلى بن السمع المعافري لتولي «إمامة الظهور» ببلاد المغرب، وأعد إسماعيل بن درار الغدامسي لتولي القضاء، فعلمه أصول الفقه والإفتاء، وأوصاهم بضرورة الاتصال به لحل ما يصعب عليهم من مسائل، وإمداده بتقارير حول نشاطهم بالمغرب الإسلامي.⁽²⁵⁾²⁵ وفيما أورده محمود إسماعيل إشارة واضحة إلى أن تولى ابن درار منصب القضاء ليس بمحض الصدفة،

بل كان الإمام أبو عبيدة يرى فيه أهلاً لهذه الوظيفة بسبب نشاطه ونبوغه الفكري والديني. ومن الجدير بالذكر في هذا الصدد أن حملة العلم وغيرهم ممن قصدوا البصرة لتلقي تعاليم المذهب الإباضي كانوا يدرسون في المجلس العلمي المعروف بـ « الحلقة » الأصول، والفروع والسير، والتوحيد والشريعة، وآراء الفرق إلى جانب علوم اللغة، وبعض العلوم التطبيقية، هذا فضلاً على معرفتهم بفنون الحكم، والسياسة، وكان الدعاة يعدون الطلاب إعداداً متقناً لتولي المناصب وتحمل أعبائها⁽²⁶⁾²⁶، ومن ذلك يمكن أن نستنتج أن تولي ابن درار لوظيفة القضاء وتضلعه في هذه الوظيفة كان مبنياً على قاعدة صلبة أهله للقيام بهذه الوظيفة خير قيام.

يتحدث المؤرخ علي يحيى بن معمر عن ابن درار بقوله: « إنه أحد أولئك الأعلام الذين كافحوا الانحراف عن دين الله بالطريقة الوقائية والعلاجية، وإن كانت آثاره في الميدان الأول أكثر وأظهر »⁽²⁷⁾²⁷، وهذه إشارة إلى جهود ابن درار في مجال القضاء، الذي تولاه في ظروف صعبة كانت تسودها كثرة البدع والفتن بما مارسه الولاة في بلاد المغرب من أساليب القمع والتسلط على طبقة العامة، فوضع ابن درار نصب عينيه الحكم والإفتاء بشرع الله ولا شك أنه وفق في هذه المهمة الصعبة التي كان يخاف منها، ومع ذلك أعد العدة لتحملها.

كان ابن درار زاهداً متواضعاً، لا يرى في منصب القضاء أو أي منصب آخر من مناصب الحكم فائدة، ولا يسعى إلى تولي أي وظيفة سياسية، وإنما كان هدفه الذي يطمح إلى تحقيقه هو خدمة الدين والأمة، لأنه يعتبر المرء إذا أراد أن يكسب مادياً أو دنيوياً من علمه فقد حاد عن طريق الصواب،⁽²⁸⁾²⁸ ومع ذلك فقد جاهد العالم الجليل ابن درار نفسه وقام بعمله بنزاهة.

آثار ابن درار في خدمة المذهب الإباضية:

تعددت آثار الإباضية في بلاد المغرب، حيث شملت ترسيخ المذهب في المنطقة، وقد لعبت قبائل جبل نفوسة دوراً كبيراً في نشر المذهب وتعميقه⁽²⁹⁾²⁹، كما أسهم علماء المذهب الإباضي في تكوين جيل من العلماء الذين تولوا مهمة تعليم المذهب من بعدهم، ويصف أحد الباحثين الدور الذي لعبه إباضيو المغرب الإسلامي بالضئيل في مجال تطوير الفكر الإباضي، ولكنهم حافظوا عليه من الناحيتين العلمية والنظرية هذا عن الفترة التي سبقت عودة حملة العلم إلى بلاد المغرب، وبعد عودتهم برز عدد كبير من العلماء الذين عرفوا بطلبة حملة العلم مثل عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم، وعبد الخليل الدركلي، ومحمد بن يانس وغيرهم، ويعتبر هذا الأخير من أهم الآثار التي تركها ابن درار حيث قدر لهذا العالم الشهير بـ أبو المنيب أن يناظر المعتزلة، وكان على درجة كبيرة من التدين والورع حتى أجمعت أمته على اختياره ليقوم مقام مئة مناضل، ويكسب التحدي مستنداً في ذلك على علمه الذي كان يغترفه من ذلك النبع الفياض ابن درار.⁽³⁰⁾³⁰ ولحملة العلم العديد من الآثار سواء أكانت سياسية أو علمية أو اجتماعية، وقد كانت آثارهم السياسية واضحة حيث تميزوا بالقيادة والتخطيط المحكم لإقامة إمارات استمر

تواجدها لسنوات طويلة على الرغم من حروب الدعاة مع المعارضين لهم في بلاد المغرب⁽³¹⁾³¹، وخاض حملة العلم العديد من الحروب من أجل رفع الظلم من الأرض وإقرار الحق، وكانت اجتماعاتهم في صياد محكمة وعلى سرية تامة حتى تمكنوا في نهاية الأمر من دخول طرابلس ومن بعدها القيروان⁽³²⁾³².

من آثار ابن درار في مجال العلم تكوين مدرسة خاصة به سميت بمدرسة الفكرة والحلقة وخصص لها وقتاً كثيراً، وخرج منها جيل متفقه في أصول المذهب الإباضي، وقد حافظ على أداء وظيفة التعليم كما أدامها شيخه وأستاذه أبو عبيدة⁽³³⁾³³، ويروى أن أبا خليل الدركلي وهو أول من أخذ عن حملة العلم حيث قال لطلابه: «سيروا إلى الحلقة واقصدها حيثما كانت يا كسالي فإن رجلاً قد سار من الجبل إلى فزان وإلى غدامس وإلى الساحل رغبة في الحلقة»⁽³⁴⁾³⁴، ومن ذلك يمكن أن نستنتج أن تكوين نظام الحلقات هو من آثار حملة العلم في بلاد المغرب وهي أشبه بالمدراس لأنها تؤدي رسالة تعليم الأجيال وتنشئتهم. ومن أعظم آثار حملة العلم عموماً في بلاد المغرب انتشار ظاهرة تأسيس المدارس التي تركت أثراً عظيماً في حياة الأمة، ومن أشهرها مدرسة أبي المنيب بن يانس تلميذ ابن درار الغدامسي، ومدرسة أبي عثمان الطمزي⁽³⁵⁾³⁵. خرج حملة العلم عدداً كبيراً من العلماء في جبل نفوسة، الذين أسهموا في أداء رسالة التعليم، وكان لهم الأثر الحسن في نشر العلم والمعرفة، وإرشاد الأمة وتوجيههم والإشراف على مدارس قامت بمهمة التعليم لزمن طويل⁽³⁶⁾³⁶.

من أهم الآثار التي يرجع الفضل فيها إلى جهود حملة العلم تكوين جيل من علماء الإباضية الكبار في جبل نفوسة وجزيرة جربة، وجنوبي تونس والجزائر، وقد أسهموا في تطوير الدراسات الإباضية التي لا تزال غالبيتها موجودة وتحتاج لدراسة وتحقيق⁽³⁷⁾³⁷. لقد ترك الفكر الإباضي أثراً هاماً في المجتمع المغربي، لأن هذا الفكر يقوم على مبدأ المساواة بين العناصر والأجناس، وقد رأينا إصرار ابن درار الغدامسي وعاصم السدراتي ومن تبعهم على تحقيق العدالة، وعدم التمييز بين الفئات الاجتماعية، وقد أدى قيام دول الخوارج فيما بعد إلى تأسيس مدن أسهمت في تحقيق الاستقرار الاجتماعي⁽³⁸⁾³⁸، ولاشك أن الاتصال الثقافي بين المشرق والمغرب من خلال حملة العلم ومن تبعهم قد أثرى الحياة الثقافية في بلاد المغرب، وظهر الكثير من الأعلام الذين برعوا في العلوم الدينية والدينية كالشيخ مهدي النفوسي وابن يانس الذي اشتهر في التفسير والفقه⁽³⁹⁾³⁹.

قاوم علماء الإباضية التيار المنحرف، ودافعوا عن صفاء الإسلام في أحكام الشريعة وأحكام الدين، وتضافرت جهودهم لتربية الأجيال التربية الصحيحة، وتنبههم إلى مزايا الإسلام، من خلال بث الوعي الديني ونشر الثقافة الصحيحة بين طبقات المجتمع المغربي، وغرس الفضيلة بينهم، وقد بذل ابن درار الغدامسي جهوداً كبيرة في سبيل تحقيق الفضيلة ومكافحة الانحراف⁽⁴⁰⁾⁴⁰.

من الآثار التي خلفها حملة العلم الخمسة وطلابهم في بلاد المغرب تطور نظام القضاء، والفتوى، حيث التزموا بتعاليم المذهب في اختيار الأئمة وجباية الأموال والجهاد ومعاملة الخصوم، وكانت أبواب الاجتهاد مفتوحة للعلماء واحتل القياس مكانه باعتباره أسلوباً مسلماً به بين المراجع الإباضية لإصدار الأحكام الشرعية منذ النص الثاني من القرن الثاني للهجرة، وقد مارس طلبة أبي عبيدة مبدأ القياس للفصل في مسائل الأحكام المختلفة.⁽⁴¹⁾

ترك حملة العلم مآثر علمية كبيرة عادت بالنفع على سكان الشمال الأفريقي وعلى من قصدهم للدراسة، من أهمها المجالس العلمية، والحلقات الدراسية، والمكتبات المعرفية، ومع أن أغلبهم اشتغلوا بالتدريس إلا أن البعض منهم اشتهر في هذا المجال فمثلاً تميز ابن درار بالحلقات الدراسية، وعرف عاصم السدراتي بالمجالس العلمية⁽⁴²⁾، وقد كانت المؤلفات الإباضية التي يكتبها علماء المشرق تصل إلى إباضية المغرب، الأمر الذي أدى إلى انتشار المكتبات وبخاصة في جبل نفوسة ومدينة تاهرت.⁽⁴³⁾

مما يلفت الانتباه في الآثار التي نتجت عن حملة العلم تكوين جيل من التابعين وتابعي التابعين، فتأسست حلقة وصل بين حملة العلم وطلابهم، لذلك أحسن ابن درار تعليم أصول المذهب وتعمق في جذوره فعن ابن درار تخرج العالم أبو المنيب محمد بن يانس، وأبو خليل الدركلي الذي حث طلابه على قصد الحلقات التعليمية في أي مكان كانت، وقد أخذ عنه إبان ابن وسيم الذي اجتهد في العديد من مسائل الأحكام فأثنى عليه شيوخ نفوسة.⁽⁴⁴⁾

يشير أحد الباحثين إلى أن كل فرد من حملة العلم قد تولى مهمة التدريس، فبدأ التعليم المنتظم في مناطق تجمعات الإباضية، فظهرت مدارس أبي درار الغدامسي، وعاصم السدراتي، وأبي داود القبلي وعبد الرحمن بن رستم قبل انتقاله إلى الجزائر⁽⁴⁵⁾، وواصل طلابهم الذين أخذوا العلم عنهم هذه المسيرة، فاهتموا بتأسيس المدارس التعليمية التي خرجت أعداداً ليست بالقليلة من العلماء، وقد تركت تلك المدارس متفاوتة آثاراً متفاوتة في نفوس الناس من خلال ما يسرته من سبل للوصول إلى الغذاء الروحي الذي ينشده الفرد في ذلك المجتمع⁽⁴⁶⁾، وفي ذلك إشارة واضحة إلى ما تركه هؤلاء في مجال التعليم والتعلم، حيث أدركوا أن المدارس أو الحلقات هي السبيل الأمثل إلى نشر قواعد المذهب في بلاد المغرب وكلمة مدارس في حد ذاتها تدل على كثرتها في تلك الفترة حيث لم يقتصر وجودها على يد هؤلاء فحسب، بل واصل طلابهم الرسالة خلفاً لهم.

من جانب آخر تعددت المكتبات التي تركها علماء الإباضية، حيث وجهوا عنايتهم لحركة التأليف وجمع الكتب، ونتج عن ذلك مؤلفات باللغة البربرية، والتي صارت تكتب بالعربية، الأمر الذي أدى إلي أن أصبحت مدن وقرى جبل نفوسة تزخر بالمكتبات الغنية بمختلف الكتب.⁽⁴⁷⁾

الخاتمة:

يتضح من خلال دراسة شخصية إسماعيل بن درار الغدامسي وجهوده في خدمة مذهب الإباضية أن هذا المذهب تميز بالوسطية والاعتدال، والرجوع إلى الحكم بشرع الله وسنة نبيه عليه أفضل الصلاة والسلام، ومن ذلك تم اختيار مجموعة من الطلاب ببلاد المغرب وبُعث بهم إلى البصرة لتلقي تعاليم المذهب الإباضي، وقد عرفوا بـ (حملة العلم) وكان ابن درار من بينهم، وقد تميز بحرصه الشديد على حضور حلقات شيخه الإمام أبي عبيدة بن كريمة، والاستفادة منه، حيث كان لا يفوت مسألة دون التقصي والاستفسار حولها، وقد لاحظ شيخه نبوغه العلمي وتفوقه .

لقد وجد مذهب الإباضية بيئة خصبة في بلاد المغرب هيأت لانتشاره بين أوساط الناس، بسبب الأوضاع المتردية التي عصفت ببلاد المغرب نتيجة تعسف الولاة وظلمهم، لذلك حمل دعاة المذهب على عاتقهم مهمة تعليم الأجيال وترسيخ المذهب في هذه المنطقة، ومن خلال هذه الدراسة نتجت جملة من النتائج يمكن إجمالها بما يلي :

1. وقع الاختيار على حملة العلم لما تميزوا به من ورع، وتفوق فكري من المناطق التي وجد بها أصول المذهب الإباضي .
2. كانت المهمة الأساسية التي سافر من أجلها ابن درار هي وظيفة التعليم .
3. تولى ابن درار وظيفة القضاء على الرغم أنه لم يطمح إلى ذلك، ولكنه مارس هذه المهنة على قدر كبير من الأمانة، وتحري الحكم بشرع الله وكان يستشير إمامه فيما يصعب عليه من مسائل الأحكام .
4. لم تقتصر جهود ابن درار على التعليم والقضاء وإنما كانت لديه جهود سياسية في خدمة مذهب الإباضية في بلاد المغرب حيث تعاون حملة العلم في إرساء وترسيخ هذا المذهب وسارت الدعوة في خطين متوازيين الدور السياسي والدور الدعوي والعلمي .
5. ترك ابن درار العديد من الآثار التي عادت بالنفع على مذهب الإباضية خصوصاً، وبلاد المغرب عامة، والتي كان أبرزها في مجال التعليم بتأسيسه مدارس الحلقة التي استمرت تقليداً لمجالس الحلقة في مدينة البصرة .
6. كون ابن درار جيلاً من التابعين وتابعي التابعين المتضلعين في مذهبهم القائم على العدالة الاجتماعية بين الأمة، وكان قدوته في ذلك إمامه أبو عبيدة، فتخرج على يديه مجموعة من كبار العلماء بجبل نفوسة ومن بينهم : محمد بن يانس، وابن خليل الدركلي .
7. سار طلاب ابن درار على نهج شيخهم في عقد مدارس الحلقة والفكرة، وكونوا جيلاً من العلماء امتدت آثارهم زمنياً في التعليم والتنشئة الإسلامية الصحيحة بالطرق العلاجية والوقائية.

8. تميز جيل حملة العلم بكثرة التأليف ونسخ الكتب، الأمر الذي نتج عنه ظهور المكتبات التي تزرع بآلاف الكتب التي لا تزال تحتاج إلى دراسة وتحقيق سواءً في جبل نفوسة أو في جزيرة جربة.

9. تميزت الفترة التي عاد فيها حملة العلم بكثرة المجالس العلمية في أنحاء بلاد المغرب، وتوافد الطلاب من كل مكان لحضورها، فمثلاً وفد على ابن درار طلاب من مختلف الاقطار الإسلامية رغبة في تلقي العلم عنه وفي ذلك دلالة على تفوقه الفكري، وتضلعه في مسائل الأحكام والفتوى.

10. من الآثار التي تركها حملة العلم في المجال السياسي تكوين إمارات إباضية استمرت لسنوات عديدة أسهمت في تكوين عواصم ثقافية كبرى، وقد كانت هذه الإمارات على درجة كبيرة من التنظيم والقيادة الحكيمة.

وفي ختام هذه الدراسة توصي الباحثة بضرورة توجيه عناية الباحثين إلى دراسة الإرث الثقافي والفكري المخطوط لعلماء الإباضية في جبل نفوسة وتحقيقه حتى يتسنى لنا معرفة العديد من الحقائق التاريخية عن المذهب الإباضي، لأنه جزء من تاريخ ليبيا الحضاري ويمثل حقبة تاريخية هامة .

الهوامش:

- (1) أبو جعفر محمد بن جرير الطبري ، تاريخ الرسل والملوك ، تحقيق : محمد أبو الفضل بن إبراهيم ، ج 5 ، دار المعارف ، القاهرة ، مصر ، 1960 م ، ص 49 وما يليها .
- (2) جيهان عبد الوهاب صبان ، الإباضية المعاصرون ، دراسة تحليلية ، مجلة الدراسات العربية ، كلية دار العلوم ، جامعة المنيا ، ص 3584 . / شمس الدين أبي عبدالله محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي ، دول الإسلام ، ج 1 ، تحقيق : حسن إسماعيل مروة ، تقديم : محمد الأرنؤوط ، دار صادر ، بيروت ، 1999 م ، ص 29 .
- (3) أبي العباس أحمد بن سعيد الدرجيني ، طبقات المشائخ بالمغرب ، ج 2 ، تحقيق : إبراهيم طلاي ، مطبعة البعث ، قسنطينة ، د.ت. ، ص 205 / علي يحيى بن معمر ، الإباضية في موكب التاريخ ، مراجعة : سليمان بن الحاج إبراهيم ، الحلقة الأولى ، ط 3 ، مكتبة الضامري للنشر والتوزيع ، سلطنة عمان ، 2008 م ، ص 112 وما يليها .
- (4) عمرو خليفة النامي ، دراسات عن الإباضية ، ترجمة : ميخائيل خوري ، مراجعة : ماهر جرار ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، ط 2 ، 2012 م ، ص 104 .
- (5) طبقات المشايخ بالمغرب ، ج 1 ، ص 19' محمود إسماعيل عبد الرازق ، الخوارج في بلاد المغرب ، دار الثقافة ، الدار البيضاء ، 1986 م ، ص 55 / أبي ربيع سليمان الباروني ، مختصر تاريخ الإباضية ، ط 5 ، مكتبة الضامري للنشر والتوزيع ، سلطنة عمان ، 1995 ، ص 34 .
- (6) أحمد بن سعيد الشماخي ، سير الشماخي ، ج 1 ، مطبعة النهضة ، وزارة التراث ، سلطنة عمان ، 1987 م ، ص 127 / الإباضية في موكب التاريخ ، الحلقة الثانية ، ص 13 .
- (7) سير الشماخي ، ج 1 ، ص 127 / مبارك بن عبدالله بن حامد الراشدي ، الإمام أبو عبيدة مسلم بن أبي كريمة التميمي وفقهه (45 هـ - 145 هـ) مطابع الوفاء ، المنصورة ، مصر ، 1992 م ، ص 262 .
- (8) دراسات عن الإباضية ، ص 114 .
- (9) الإباضية في موكب التاريخ ، القسم الثاني ، الحلقة الثانية ، ص 290 .
- (10) الإباضية في موكب التاريخ ، القسم الثاني ، الحلقة الثانية ، ص 290 .
- (11) سيف بن أحمد البوسعيدي ، حملة العلم إلى المغرب ودورهم في الدعوة الإسلامية ، تقديم : يوسف البراشدي ، دائرة الوعظ والبحوث الإسلامية ، د.ت. ، ص 32 .
- (12) المرجع نفسه ، والصفحة .
- (13) الإباضية في موكب التاريخ ، القسم الثاني ، الحلقة الثانية ، ص 325 .
- (14) عدنان عياش ، جذور الإباضية في بلاد المغرب ، مجلة اتحاد الجامعات العربية للآداب ، المجلد 4 ، العدد الثاني ، 2007 م ، ص 263 .

- (15) ابراهيم بن القاسم القيرواني الرقيق ، تاريخ إفريقية والمغرب ، تحقيق : المنجي الكعبي ، تونس ، 1968 م ، ص 128 .
- (16) دراسات عن الإباضية ، ص 116 .
- (17) محمد عيسى الحريري ، الدولة الرستمية بالمغرب الإسلامي حضارتها وعلاقتها الخارجية بالمغرب والأندلس ، ط 3، دار القلم ، الكويت ، 1987 م ، ص 66 - 67 / محمود إسماعيل عبد الرازق ، الخوارج في بلاد المغرب ، دار الثقافة ، الدار البيضاء ، المغرب ، 1985 م ، ص 55.
- (18) الإمام أبو عبيدة مسلم ، ص 263 / الإباضية في موكب التاريخ ، القسم الثاني ، ص 291 .
- (19) الإباضية في موكب التاريخ ، القسم الثاني ، الحلقة الثانية ، ص 291 وما يليها .
- (20) حملة العلم إلى المغرب ، ص 33 .
- (21) الإمام أبو عبيدة ، ص 262 / سير الشماخي ، ج 1 ، ص 114 .
- (22) طبقات المشائخ بالمغرب ، ج 1 ، ص 21 / مقرين بن محمد البغطوري ، سيرة مشائخ نفوسة ، تحقيق : توفيق عياد الشقروني ، مؤسسة تاوالت الثقافية ، 2009 م ، ص 30 .
- (23) الإباضية في موكب التاريخ ، القسم الأول ، الحلقة الأولى ، ص 163 .
- (24) الإمام أبو عبيدة ، ص 262 / حملة العلم بالمغرب ، ص 32 .
- (25) الخوارج في بلاد المغرب ، ص 55 .
- (26) الخوارج في بلاد المغرب ، ص 53 .
- (27) الإباضية في موكب التاريخ ، القسم الثاني ، الحلقة الثانية ، ص 291 .
- (28) المصدر نفسه والصفحة .
- (29) دراسات عن الإباضية ، ص 110 .
- (30) المرجع نفسه ، ص 117 / الإباضية في موكب التاريخ ، القسم الثاني ، الحلقة الثانية ، ص 293 .
- (31) حملة العلم إلى بلاد المغرب ، ص 36 .
- (32) تاريخ إفريقية والمغرب ، ص 128 .
- (33) الإباضية في موكب التاريخ ، القسم الثاني ، الحلقة الثانية ، ص 291 .
- (34) دراسات عن الإباضية ، ص 103 - 104 . / طبقات المشائخ بالمغرب ، ج 1 ، ص 301 .
- (35) الإباضية في موكب التاريخ ، القسم الثاني ، الحلقة الثانية ، ص 325 .
- (36) المصدر نفسه والقسم والحلقة ، ص 326 .
- (37) دراسات عن الإباضية ، ص 117 .
- (38) الخوارج في بلاد المغرب ، ص 287 وما يليها .
- (39) سير الشماخي ، ص 148 .
- (40) الإباضية في موكب التاريخ ، القسم الثاني ، الحلقة الثانية ، ص 291 .

- (41) دراسات عن الإباضية ، ص 143 / الخوارج في بلاد المغرب ، ص 285 .
- (42) الإباضية في موكب التاريخ ، القسم الثاني ، الحلقة الثانية ، ص 291 / حملة العلم إلى المغرب ، ص 59 .
- (43) دراسات عن الإباضية ، ص 116 - 117 .
- (44) طبقات المشائخ بالمغرب ، ج 2 ، ص 302 - 303 .
- (45) أحمد الياس حسين ، الإباضية في المغرب العربي ، مكتبة الضامري للنشر والتوزيع ، سلطنة عمان ، 1992 ، ص 57 .
- (46) الإباضية في موكب التاريخ ، القسم الثاني ، الحلقة الثانية ، ص 327 .
- (47) أحمد مختار عمر ، النشاط الثقافي في ليبيا ، منشورات الجامعة الليبية ، كلية التربية ، 1971 ، ص 111 .

المصادر والمراجع:

أولاً: المصادر:

- (1) الباروني: أبو الربيع سليمان، مختصر تاريخ الإباضية، ط5، مكتبة الضامري للنشر والتوزيع، سلطنة عمان، 1995.
- (2) بن معمر: علي يحيى، الإباضية في موكب التاريخ، مراجعة سليمان بن الحاج إبراهيم، ط3، مكتبة الضامري للنشر والتوزيع، سلطنة عمان، 2008.
- (3) البغطوري: مقرين بن محمد، سيرة مشائخ نفوسة، تحقيق: توفيق عياد الشقروني، مؤسسة تاوالت، الثقافية، 2009 م.
- (4) الدرجيني: أبو العباس أحمد بن سعيد، طبقات المشائخ بالمغرب، ج 2، تحقيق: إبراهيم طلاي، مطبعة البعث، قسنطينة، الجزائر، د. ت.
- (5) الذهبي: شمس الدين أبي عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان، دول الإسلام، ج 1، تحقيق: حسن إسماعيل مروة، تقدم: محمد الأرنؤوط، دار صادر، بيروت، لبنان، 1999.
- (6) الشماخي: أحمد بن سعيد، سير الشماخي، مطبعة النهضة وزارة التراث، سلطنة عمان، 1987 م.
- (7) الطبري: أبو جعفر محمد بن جرير، تاريخ الرسل والملوك، تحقيق: محمد أبو الفضل بن إبراهيم، ج 5، دار المعارف، القاهرة، مصر، 1960 م.
- (8) القيرواني الرقيق: إبراهيم بن القاسم، تاريخ إفريقية والمغرب، تحقيق: المنجي الكعبي، تونس، 1968 م.

ثانياً: المراجع:

- (1) البوسعيدي: سيف بن أحمد، حملة العلم إلى المغرب ودورهم في الدعوة الإسلامية، تقديم: يوسف البراشدي، دائرة الوعظ والبحوث الإسلامية، د. ت.
- (2) الحريري: محمد عيسى، الدولة الرستمية بالمغرب الإسلامي حضارتها وعلاقتها الخارجية بالمغرب والأندلس، ط3، دار القلم، الكويت، 1987 م.
- (3) حسين: أحمد ألياس، الإباضية في المغرب العربي، مكتبة الضامري للنشر والتوزيع، سلطنة عمان، 1992 م.
- (4) الراشدي: مبارك بن عبد الله بن حامد، الإمام أبو عبيدة بن أبي كريمة التميمي وفقهه، (45-145 هـ)، مطابع الوفاء، المنصورة، مصر، 1992 م.
- (5) عبد الرازق: محمود إسماعيل، الخوارج في بلاد المغرب، دار الثقافة، الدار البيضاء، 1986 م.
- (6) عمر: أحمد المختار، النشاط الثقافي في ليبيا، منشورات الجامعة الليبية، كلية التربية، 1971 م.
- (7) النامي: عمرو خليفة، دراسات عن الإباضية، ترجمة: ميخائيل خوري، مراجعة: ماهر جرار، ط3، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 2012 م.

ثالثاً : الدوريات :

- (1) صبان : جيهان عبدالوهاب , الإباضية المعاصرون , دراسة تحليلية , مجلة الدراسات العربية , كلية دار العلوم , جامعة المنيا , مصر .
- (2) عياش : عدنان , جذور الإباضية في بلاد المغرب , مجلة اتحاد الجامعات العربية للآداب , مج 4 , ع 2 , 2007 م .